الطبيعة الطبقية للصهيونية

في المقال التالي ، الذي كتبه « أ. براغينسكي » لوكالة نوفوستي السوفياتية تحليل للطبيعة الطبقية الصهيونية ، ومن البديهي ان يعكس المقال هذا اسلوب التفكير السوفياتي بالمسالة الصهيونية ، من الاعتبار الذي يلمح الى ان المشكلة في اسرائيل هي مشكلة « الطغمة الحاكمة » فحسب ، الا ان التحليل ذاته الذي يورده الكاتب عن طبيعة الصهيونية ينقض ذلك الاعتبار جذريا ، وفيما يلي المقاطع الاساسية من المقال .

« الهدف »

لقد ارسى لينين في مؤلفه الكلاسيكي « ملاحظات انتقادية حول المسالة القومية » الاسس النظرية للمسالة القومية ، هذه الاسس التي تبيح ايضا اصدار حكم على الايديولوجية القومية (بما فيها الصهيونية) ، ويمكن ان نفهم فهما صحيحا ومضبوطا وقائع الحياة القومية وذلك فقط اذا قمنا بتحليلها على "اساس ماركسي ، اي من وجهة نظر صراع الطبقات ، واذا ما ربطنا الشعارات بمصالح الطبقات وسياستها ، وليس بـ «مبادىء عامة» و « بخطب رنانة وعبارات » (المؤلفات الكاملة ، الجزء ٢٤ ، ص ١١٩)

ان موضوعات لينين هي صالحة وراهنة تماما اليوم ، بل واكثر من ذلك ، فقد برهن تاريخ السنوات الاخيرة بصورة مقنعة بانه حين تسعى البورجوازية الرجعية الى فرض ايديولوجيتها على الجماهير الواسعة ، فانها لا تعمل ابدا بوجه صريح ، وهي لا تظهر جهارا اهدافها الطبقية ، بل انها تلجأ الى لغة الايماء والديماغوجية الاجتماعية ، وتعرض مصالحها بصفتها مصالح الشعب باسره ، مختفية وراء مبادىء عامة وبيانات ، وعبارات .

يجب التفكير في هذا ايضا لدى جلاء الجوهر والطبيعة الطبقية لايديولوجية وسياسة الصهيونية. وسيكون هذا التحليل اكثر موضوعية ومدعوم علميا اذا ما حللنا ، على نحو تاريخي اكثر ، مسالة ظهور الصهيونية ، وتطورها ، وتحولها الى ما تمثل الصهيونية اليوم .

- ١ -

لقد ظهرت الصهيونية في الميدان الاجتماعي والسياسي عند نهاية القرن الماضي مع برنامج واسع جدا للتسوية النهائية للمسالة اليهودية بتشكيل دولة قومية خاصة في اراضي فلسطين ، هناك حيث تطور قبل الميلاد المجتمع اليهودي القديم ودولته الطبقية . وكانت تبرز من ذلك المفهوم سمات طوباوية خيالية ، مفعمة برومنطيقية رجعية (الدعوة الى العودة الى الماضي المضفى عليه طابع مثالي) ، وكانت تبعث فيه ـ اي في المفهوم الصهيوني ـ الفكرة الدينية للخلاص (ظهور خارق لمخلص منتظر بعيد ارض الميعاد الى اليهود) . والطابع البورجوازي لايديولوجية الصهيونية لم يكن ظاهرا على السطح ، بل ان وجهها الطبقي كان يرتسم شيئا فشيئا ، لدى تحديد الصهيونية كيف تنوي انشاء دولتها الخاصة .

كانت نقطة انطلاق الايديولوجية الصهيونية الموضوعة الزائفة حول الطابع الاستثنائي لمصير اليهود التاريخي ، الذي كان يستخلص منه ايضا استنتاجات بعيدة المدى ، لاغراض دعائية ، تؤكد بان اليهود هم جماعة خارج الطبقات ، الا ان هذا التأكيد مضاد للحقيقة التاريخية . ولا جدال ، في انه كانت لليهود ، شأن جميع الشعوب الاخرى ، سمات نوعية خاصة في تاريخهم . فهم ، بعد ان حرموا من دولتهم المستقلة ، وبعد ان تناثروا في جميع البلدان ، كثيرا ما تعرضوا للاضطهاد ، وهددوا احيانا بالزوال جسديا . لقد كانت ابادة الفاشية الهتلرية لستة ملايين يهودي آخر جريمة من حيث التاريخ ضد اليهود ، اثارت استياء ضمير البشرية .

ولكن لا ينبغي ان تنسى ان شعوبا اخرى ، في مجتمع مؤسس على استثمار الانسان للانسان قد عرفت مصائر فاجعة كمصير اليهود . فالشعب الطاجيكي ، الذي لا يقل قدما عن اليهود ، قد حرم من دولته منذ القرن الحادي عشر حتى ثورة اوكتوبر . ولمصائر الاشوريين والارمن والاكراد كثيرا من السمات المشتركة مع تاريخ اليهود . ومؤثرة هي ايضا ابادة مقدار كبير من الناس من مختلف القوميات من قبل هذه الفاشية الهتلرية ذاتها اثناء الحرب العالمية الثانية ، والكوارث التي اصابت الشعوب ضحية الاعمال الوحشية الامبريالية العصرية : جرائم محق شعوب بكاملها ، والتمييز العنصري الخ . لكن الشيء الاساسي ، هو ان تاريخ اليهود ، مثل تاريخ جميع الشعوب ، قد اتبع القوانين العامة لعملية التطور التاريخي وكانت تحكمه قوانين الصراع الطبقي بين المضطهدين (بكسر الهاء) والمضطهدين (بفتح الهاء) .

ولهذا بالضبط امتلأ تاريخ اليهود ، طوال قرون ، بصراع طبقي بين الاغنياء والفقراء ، كما هو الامر عند جميع الشعوب . لذلك فان الطغمة المستثمرة (بكسر الميم الثانية) الحاكمة في المجتمع اليهودي ، كانت تسعى دائما لتغطية التناقضات الطبقية باردية رعوية وابوية ، عنصرية ودينية ، محبة للناس ، ورياء ، تؤكد بوجه خاص بان اليهود ليس لديهم انقسام طبقي . وعلى هذا النحو ، فان الفئة البورجوازية اليهودية قد تصرفت دائما كأية فئة اخرى استثمارية حاكمة .

وقد شرح لينين ذلك بما يتصف به من وضوح ودقة ، وقد اعلن في خطاب القاه في نهاية آذار ١٩١٩ قال : « يوجد بين اليهود عمال وشغيلة ، وهم يشكلون الاكثرية . انهم اخواننا الذين يضطهدهم رأس المال ، وهم رفاقنا في الكفاح من أجل الاشتراكية . ويوجد بين اليهود كولاك ومستثمرون ورأسماليون ، كما بين الروس كما في جميع الامم .. ان الاغنياء ، اليهود والروس ، شأن اغنياء جميع البلدان ، المحالفون بعضهم مع البعض الآخر ، يسحقون العمال ، ويضطهدونهم وينهبونهم ويفككون وحدتهم » (المؤلفات ـ الجزء ٢٨ ـ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣) .

ان بعض السمات النوعية من تاريخ اليهود تفسر بعدم ارتباطهم بارض الاوطان التي قطنوها عبر التاريخ ، وكانوا في الماضي البعيد شعبا واحدا ، ثم اصبحوا جماعات عرقية متمايزة تماما وبصورة ظاهرة ، من حيث اللغة ، وطراز المعيشة ، والثقافة ، والذهنية . وكانوا يشكلون في بلدان اقامتهم اقلية قومية تختلف باللغة والدين عن اكثرية السكان . ويفسر ذلك ايضا بالوضع الاقتصادي والسياسي لليهود ، وعلى الاخص في بلدان اوروبا .

وقد ادى ذلك ، اقتصاديا ، الى تمركز اليهود ، بصورة حصرية تقريبا ، في التجمعات المدينية (في مدن العصر الوسيط ، ثم في المدن الرأسمالية) ، وفي الحاضرات ، والاماكن غير المشغولة بالعمل الزراعي . وكان اليهود الشغيلة بصورة عامة حرفيين صغارا يشتغلون في دائرة الخدمات . وكان الكثيرون منهم يضطرون بممارسة التجارة الصغيرة ، وكانت كبيرة بينهم نسبة الفقراء والمضطهدين (بفتح الهاء) والمهانين الذين لم يكونوا يحتفظون بالبقاء الا بفضل احسان الطائفة الدينية . وكانت العناصر الاستثمارية للسكان اليهود مدفوعة في مختلف ميادين الوساطة ، والتجارة الكبرى ، والربا ، وكانت تفتني ، مشكلة فئة هامة ونافذة من البورجوازية الناشئة .

وسياسيا ، كان السكان اليهود الكادحون محرومين من الحقوق الاولية ، وخاضعين لعمليات اضطهاد دينية ، وحالات تمييز ، وكانوا مرغمين على العيش في محابس واحياء مقفلة خاصة .

هذا الوضع الاقتصادي والسياسي وضع « الجسم الغريب » كان يولد ظاهرات بغيضة كالعداء للسامية والعداء لليهود . وفي كثير من البلدان ، كان يوجد بين الملاك والفلاح المستعبد ، عميل يهودي ، مدبر للاملاك ، ووسيط ، وهو علاوة على ذلك ذو دين آخر . وكان الفلاح كثيرا ما يحول غضبه بالضبط ضد هذا اليهودي الوسيط وليس ضد السيد ، الملاك الذي كان يقطن بعيدا والذي لم يكن الفلاح يعرفه في اكثر الاحيان . ان روح المزاحمة ، وحرب الجميع ضد الجميع ، الخاصتين بالنظام الرأسمالي ، والتسمم المقصود لنزعة العداء للسامية ، من قبل الطغمة المستثمرة (بكسر الميم الثانية) للامة ، لكي تحول عن نفسها غضب شغيلتها المتصاعد ، كل هذا كان يسهم في ان يوجه القسم المتخلف ، الفضل من السكان ، حقده على مختلف ممثلي البورجوازية اليهودية ، نحو اليهود الفقراء والابرياء .

ان الايديولوجية الصهيونية تسعى لعرض المسالة اليهودية بمثابة شيء أبدي ، وخارج التاريخ ، والواقع أن المسالة اليهودية ، شأن جميع الظاهرات الاجتماعية ، تخضع لتغيرات هامة في مختلف العهود التاريخية .

وبحسن ، بادىء بدء ، الاشارة الى نزعتين في تطور المستعمرات اليهودية : نزعة نحو العزلة ، ونزعة نحو الاندماج في الاكثرية القومية للبلاد . وهاتان النزعتان قد تعايشتا دائما ، ولم يكف تأثيرهما المتزامن ، لا في العصر الوسيط ، ولا في ايامنا . وكانت نزعة الانصهار والاندماج العضوي في حياة هذه الدولة أو تلك ، تعبر عن نفسها بصورة خاصة في دائرة الثقافة ، وكان ذلك يؤدي ايضا الى اندماج تام في اكثرية السكان ، في العرق السائد .

وبصدد النزعة الى العزلة ، فقد كان يولدها، على حد سواء ، تأثير عوامل خارجية ، كعوامل الارغام (مثلا ، فرض الاقامة على اليهود في احياء خاصة) وتدابير التمييز ، ورغبة الاوساط اليهودية المحافظة في العزلة الذاتية ، المؤسسة على المفاهيم التي تؤكد بأن اليهود هم « شعب الله المختار » ، وجنس مميز ، استثنائي .

على هذه النزعة المحافظة اسست الصهيونية حلها للمسالة اليهودية .

لقد كانت مختلف الجماعات الاجتماعية والسياسية في البلدان التي يقطنها يهود ، تنظر الى هذا الحل بكيفيات مختلفة . وبالنسبة للايديولوجيين الديمقراطيين ، كانت تسوية المسالة اليهودية تقوم في وضع الاقلية اليهودية في نفس الشروط الاقتصادية والسياسية لسائر السكان . ان نشاطات المثقفين الفرنسيين بقيادة زولا في قضية دريفوس ، والرأي العام التقدمي الروسي في قضية بايليس ، هما مثالان ساطعان على النضال القوي الحازم للاوساط التقدمية والديمقراطية من أجل حل المسالة اليهودية .

وما من حزب سياسي ، ولا رجل سياسي بارز ناضل بمثل النشاط والدأب الذي ناضل به الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ولينين ضد كل نير قومي ، بما في ذلك ضد اضطهاد اليهود في المجتمع الرأسمالي . وبمبادرة من لينين، اعد كتلة الحزب الاشتراكي الديمقراطي مشروع قانون لتقديمه الى الدوما الرابعة عام ١٩١٤ ، كتبه لينين شخصيا . ويتعلق الامر بـ « مشروع القانون حول الغاء جميع القيود والتضييقات على حقوق اليهود ، وبصورة عامة، جميع القيود والتضييقات المتصلة بالمنشأ او بالانتساب الى اية قومية كانت » و « ... ان الاضطهاد القومي يجب ان يدان بحزم عن طريق العامل الروسي (المؤلفات ، الجزء ٢٥ ـ ص١٧) . والبروليتاريا الروسية هي التي دافعت فعلا وحقا عن الشغيلة اليهود في روسيا القيصرية ، لا عن الصهيونيين .

ويمكننا ان نرى بوضوح تام أن النزعة الى العزلة كانت سائدة حين كان منتشرا التمييز والتعسف ازاء اليهود ، في حين أن النزعة الى الاتحاد والاندماج كانت أقوى في ظروف التحرر ، حين كانت النزعة المعادية للسامية تختفي . ويمكن أن نثبت كذلك قوانين محددة لدى الحديث عن تأثير هذه النزعة أو تلك في الابداع الثقافي من قبل الاشخاص ذوي الاصل اليهودي ، فالذين أرغموا ـ أو قرروا هم انفسهم ـ أن ينحصروا في البيئة اليهودية ، وفي اللغة اليهودية ، مع انهم ابدعوا اعمالا بارزة ، الا انهم لم يبلغوا ، قط ، الذرى التي بلغها اليهود الذين اندمجوا في علم وفن بلدانهم ، وأكثريتها القومية . ونقتصر على ذكر بعض الاسماء لاثبات ذلك : سبينوزا ، وهايني ، وليفيتان ، واينشتاين . ان جميع المفكرين التقدميين ، الاوروبيين منهم وغير الاوروبيين ، قد نادوا بحل ديمقراطي منسجم ، للمسالة اليهودية ، بواسطة اندماج يوافق عليه اليهود بحرية ، وبصورة طبيعية .

ان البروليتاريا اليهودية الناشئة ، والتي اشتركت مع الطبقة العاملة الروسية في المعارك الطبقية ، قد أدركت منذ القرن التاسع عشر طبيعة البورجوازية اليهودية وخطتها « خارج الطبقات » . وكان المثقفون اليهود التقدميون يدركون كذلك جوهر « بورجوازيتهم » المنافق والجشع . وفي أعمال الادب الديمقراطي للقرنين التاسع عشر والعشرين ، المكتوبة باللغة اليهودية المحكية (اليديش) ، تلك الاعمال التي تأثرت تأثرا طيبا بالادب الكلاسيكي الروسي ، في أعمال كتاب أمثال : منديل ، موهيس ، سفوريم ، شولوم عليهم ، ا. بيريتس و د. بيرغيلسون ، نجد مجموعة كبيرة من الشخصيات المنبثقة من الوسط البورجوازي اليهودي ، بجميع تنوعاتها المثيرة للاشمئزاز : التقي الشديد الورع والمنافق في الوقت نفسه ، و « محب البشر » الوصولي، الخ ، ومع ذلك ، فان جماهير هامة من الفقراء اليهود ، المرهقين بالعوز والبؤس ، والجهل وفقدان الحقوق ، لم يكن بوسعهم بعد أن يتحرروا من السيطرة الايديولوجية لبورجوازيتهم المتلاحمة تلاحما وثيقا مع الاكليروس الرجعي .

ان نهوض الحركة العمالية في روسيا ابتداء من مطلع القرن العشرين ، قد بث الروح الثورية في جميع فئات المجتمع الكادحة ، وخاصة الشعوب المضطهدة . وقد شملت ايضا عملية التطور هذه الجماهير الكادحة اليهودية ، التي

انبثق منها كثير من ابطال الاشتراكية والاممية البروليتارية ، المناضلون ضد الحكم الفردي .

ان اندماج الجماهير الكادحة لشعوب روسيا المضطهدة في الحركة الثورية بقيادة البروليتاريا الروسية قد ارعبت البورجوازيه القوميه لتلك الشعوب ، بما في ذلك البورجوازيه اليهودية . فكانت هذه في شأن شركائها الطبقيين ، تؤجج المشاعر والافكار القومية ، مجابهة التضامن الاممي للشغيلة بـ « النزعة القوميه البورجوازيه الناشطة التي ابلد لعمال ، وتعطل ذكاءهم ، وتشق صفوفهم ، لاجل وضعهم تحت سيطرة البورجوازية » (لينين ، المؤلفات ، الجزء ٢٤ ـ ص١٢٢) .

هكذا كانت تستخدم الصهيونية .

- ٢ -

كما سبق القول ، فان الصهيونية قد استخدمت الخرافتين اللتين كان الدين اليهودي يغرسهما في ادمغة المعدمين ، والقائلتين بأن الشعب اليهودي هو « شعب الله المختار » وانه يجب أن ينتظر « قدوم المخلص المنتظر » . وكان الزعماء الصهاينة يستخدمون هذا السلاح المجرب لاجل اخضاع الجماهير الواسعة لنفوذهم الكامل الذي لا منازع لهم فيه ، مرغمين اياهم على دعم مخطط انشاء دولة يهوديه في فلسطين بمساعدة دولة اوروبية أو مجموعة من الدول ، ولاجل جعل هذه المساندة أكثر نشاطا وفعالية ، كانت الصهيونيه تقدم موضوعة ثالثة وصفها لينين بانها « خرافة الصهيونيين حول الطابع الابدي لنزعة العداء للساميه » (المؤلفات ، الجزء ٧ ـ ص١٢١) والتي يزعمون أن جميع الشعوب تتصف بها ، وانها لن تتلاشى الا عند استيطان اليهود دولهم الخاصة .

لقد كانت خرافة « الشعب المختار » تعني من جهه الاعتراف بالطابع الاستثنائي الفريد للشعب اليهودي ، المتميز عن جميع الشعوب الاخرى ، وانكار وجود التناقضات الطبقية داخله ، والتأكيد بأن جميع اليهود أخوة ، بصرف النظر عن ثروة كل منهم ومواطنيته ، في حين أن الشعوب الاخرى هي أدنى ، وهي معادية للسامية يجب كرهها . وهذه الموضوعة ضارة سياسيا ، لانها تجبر المستثمر (بفتح الميم الثانيه) على الخضوع لـ « أخيه » الذي يستثمره . وهي موجهة مباشرة ضد التضامن البروليتاري والاسرة الاممية لجميع الشغيلة ، وهي ، أي تلك الموضوعة ، شأن اية نزعة قومية ـ شوفينية ، تسوغ الاخلاقية المعادية للانسانية : « ما يحظر على الاخرين ان يفعلوه ازائي ، استطيع ان افعله ازاء الاخرين » !

ان فكرة تشكيل دولة يهودية في فلسطين بمساعدة دول أوروبية كانت تحول اليهود الشغيلة عن النضال الثوري العالمي في البلدان التي يقطنونها . وكان تحقيق هذه الفكرة يهدد بجعل هذه الدولة شبه مستعمرة تابعة للدولة الرأسمالية الاوروبية التي تحميها .

وهذا يؤكده الزعماء الصهاينة انفسهم : لقد كان الصحفي تيودور هرزل، مؤسس الصهيونية، وهو يهودي نمساوي ، يؤكد بأن الصهيونيين سينشئون في فلسطين مركزا أماميا ضد آسيا ، وقد أجرى مفاوضات بصدد مشروعه مع الامبراطور غليوم الثاني ومع الوزير القيصري الرجعي بليفه منظم المذابح ضد اليهود . ومنذ عشرينات هذا القرن ، خاطب ماكس نورداو ، احد رفاق هرزل في « الكفاح » ، الحكومة البريطانية ، معلنا بصراحة تامة رغبة الصهيونية في خدمة المستعمرين : « نحن نعلم ماذا تنتظرون منا ، انكم تريدون منا أن نحمي قناة السويس .. نحن على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة ، ولكن من الضروري تماما ، ومما لا غنى عنه ان تساعدونا لنصبح قوة ، لكي نستطيع القيام بواجبنا » !

ان الموضوعة الثالثة ، موضوعة الطابع الابدي لنزعة العداء للسامية ، فهي الفكرة الاثيرة لدى الصهيونية ، وتنبغي الاشارة الى انه ما من شيء افاد الصهيونية بمقدار ما افادتها النزعة المعادية للسامية ، ومع ان « نزعة حب اليهود » و « نزعة بغض اليهود » متعارضتان ، فان فيهما من حيث جذرهما وطبيعتهما كثيرا من الاشياء المشتركة . وكلتا النزعتين تحلان محل المعالجة الطبقية للمسالة اليهودية المعالجة العنصرية بالاعتراف بتفرد الشعب اليهودي ، وطابعه الاستثنائي : الصهيونيون يعنون ذلك بمعنى التفوق والناس المختارين ، ومعادوا السامية يقصدون الانتقاص. وهؤلاء وأولئك يريدون ترحيل اليهود من البلدان التي يقطنونها . وكلا الفريقين يعبرون عن ايديولوجية وذهنية قومية ـ شوفينية : معادو السامية مستعدون لوصف جميع اليهود بانهم صهاينة ، وجميع الناس غير اليهود بانهم معادون للسامية .

ان وحدة الصهيونية ونزعة العداء للسامية ، كوجهين لمدالية واحدة ، هي العنصرية ، قد جرى التأكيد عليها في الوثيقة الختامية للمؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية العمالية الذي عقد عام ١٩٦٩ . تدعو الوثيقة للكفاح « ضد ايديولوجية وممارسة العنصرية ، اللاانسانية » ، و « ضد اضطهاد السكان العرب في الاراضي المحتلة وفي اسرائيل ، وضد التمييز العنصري والقومي ، وضد الصهيونية والنزعة المعادية للسامية ، التي تؤججها القوى الرأسمالية الرجعية ، والتي تستخدمها لتضليل الجماهير سياسيا » .

ان النزعة المعادية للساميه هي ظاهرة تاريخية وهي بالتالي ، شيء عابر . لقد قطعت جذور تلك النزعة ، في المجتمع الاشتراكي ، وشروط وجودها تزول . وكما بينت التجربة ، فليس نقل اليهود الى بلد آخر ، بل نشر الديمقراطيه في المجتمع هو الذي أسهم في ازالة رصيد النزعة المعادية للساميه ، واستئصالها .

وعلى هذا النحو، فان جميع مبادىء وشعارات الصهيونية التي عددناها هي مضادة لمصالح الشغيلة ولا تفيد سوى البورجوازية .

ونظرا لان الصهيونية ، التي كانت تضرب على اوتار الكرامة الانسانية المهانه للسكان اليهود في روسيا القيصرية ، قد نجحت في أن تنشيء لنفسها قبل الثورة قاعدة واسعة بعض الشيء ، فقد كان ثمة في المنظمات الصهيونية أشخاص كثيرون يخطئون عن اخلاص ، كان ثمة شغيلة ، ومن المثاليين الشبان والمتعصبين الذين لم يدركوا الجوهر الطبقي للصهيونية ، فلم يكونوا يعتبرون أنفسهم أنصارا للافكار البورجوازية . اذن فقد كان ثمة داخل الصهيونية تيارات مختلفة وفروقات ـ من صهيونية فكرية وروحية ، وصهيونية فتية أو جديدة ، و « صهيونية اشتراكية » اذا صح التعبير . ورغم انه كانت تجمع في جميع هذه النزعات ، بصورة غريبة ، ملامح الطوباوية البورجوازية الصغيرة ، الساذجة والديماغوجية الاجتماعية ، والاشتراكية ـ الاصلاحية ، والرومنطيقية الرجعية ، فقد كانت تلك النزعات تنشد كلها ، في خاتمة المطاف ، اهدافا صهيونية مشتركة .

وكان يوجد ايضا بين زعماء الصهيونية ، عنصريون صرحاء دعوا مسبقا الى ايديولوجية الفاشية الطوائفية ـ الحرفية (نسبة الى نظام طوائف الحرف الذي اعتمدته الفاشية فيما بعد) امثال جابوتنسكي ، ومبتكري المخططات البورجوازية الصغيرة الانتقائية ، وكانوا يعتقدون انها تقدمية . لكن جوهر الصهيونية ، واسسها الايديولوجية ، بقيت هي ذاتها منذ نشأتها ، وهي تستجيب لمصالح البورجوازية ، لا لمصالح الشعب . ان معارضة الصهيونيين النشيطة لنضال الجماهير الثوري ضد القيصرية ، ومناهضتهم بعد ثورة أوكتوبر تشييد المجتمع الاشتراكي ، قد اظهر وجه الصهيونية الحقيقي بصفتها ايديولوجية رجعية ، معادية للشعب ، وقومية بورجوازية . لقد أكدت الحياة كل صحة هذا التقييم الذي اعطاه لينين للصهيونية حين كانت ما تزال في بدء ولادتها فقط .

ان جميع التظاهرات الرجعية للصهيونية ، بما فيها الفظائع المرتكبة من قبل « العقبان » الصهاينة ، كانت ، بصورة ما ، واردة في برنامج الايديولوجية الصهيونية منذ البدء ، وكانت تظهر بوضوح متزايد مع تطور الصهيونية .

- ٣ -

لقد استتبعت الازمة العامة للرأسمالية اشتدادا للسمات الرجعية في مجمل الايديولوجية البورجوازية. وفي شروط الصراع بين المنظومتين، الرأسمالية والاشتراكية ، فان هذه السمات تتجسد بتسعير البورجوازية الامبريالية للنزعة المعادية للشيوعية والنزعة المعادية للسوفيات ، وبنشر الهستيريا الحربية والعنصرية، واللجوء الى التخريب والتضليل الايديولوجيين . هذا كله هو أيضا من خصائص الصهيونية العصرية كايديولوجية بورجوازية . ان القسم الاكثر جشعا وضراوة والاكثر ازدهارا ، من البورجوازية اليهودية ، الممثلة قبل كل شيء بكبار أصحاب المصانع والتجار والمصرفيين ، قد استطاعت أن تتحول الى بورجوازية احتكارية مرتبطة على النحو الاوثق بالرأسمال الاحتكاري العالمي (من طراز احتكارات كوهن وليب وشركاهم ، الاميركية ، وكذلك روتشيلد وغيره من الحماة الماليين للصهيونية) . وبالرغم من مختلف فروق الصهيونية الحديثة ، فان جذورها الطبقية تعود الى البورجوازية الاحتكارية ذات الاصل اليهودي، المتلاحمة تلاحما وثيقا ايضا مع الرأسمال العالمي، رأسمال الولايات المتحدة بصورة خاصة .

كانت الصهيونية لقية حقيقية بالنسبة لبعض أوساط البورجوازية الامبريالية ، والاميركية على الاخص ، لاجل تنفيذ سياسة العدوان الاستعمارية الجديدة . ويرى ذلك بوضوح من مثال الاوساط الحاكمة في اسرائيل التي انضمت الى قوى الامبريالية العالمية ، وبالدرجة الاولى الولايات المتحدة وتلعب دور أدوات عسكرية للولايات المتحدة ضد الحركة التحررية الثورية للشعوب العربية، كما أن تلك الدوائر الاسرائيلية الحاكمة تدافع عن مصالح الولايات المتحدة ، العسكرية والاقتصادية والنفطية بصورة خاصة ، في الشرق الادنى . ويفسر ذلك ايضا بالمساندة السياسية والمعنوية والمادية التي يقدمها الامبرياليون لحكام اسرائيل الصهاينة الذين ينفذون خطط العدوان والتوسع ازاء البلدان العربية .

لذلك يمكن القول عن الصهيونية العصرية انها ليست مرتبطة بالمسالة اليهودية قدر ارتباطها بسياسة الامبريالية ، الاستعمارية الجديدة ، وباوساط الرأسمال الاحتكاري للولايات المتحدة (ان الرأسماليين ذوي المنشأ اليهودي يشكلون جزءا عضويا من ذلك الرأسمال ، وليس مطلقا جناحا أو جزءا على حدة) تلك الاوساط التي تحرض وتمول الحرب الاجرامية في فيتنام ، وتجني الثروات من هذه الحرب ، وتحمي الزعماء المتطرفين الصهيونيين في اسرائيل. وتشهد بذلك بصورة واضحة وقائع معروفة مثل اجتماعات أصحاب الملايين اليهود في اسرائيل والولايات المتحدة ، الذين يمولون عمليات اسرائيل العسكرية ، وكذلك المؤازرة المقدمة الى تل أبيب من قبل الاوساط العدوانية الاميركية وانتقاميي الجمهورية الاتحادية الالمانية .

ومن عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٨ ، قدمت الاحتكارات الغربية لاسرائيل ثمانية مليارات دولار ، وقد تقرر دفع ٩ مليارات دولار في الفترة ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٥ . فمن هم ، باستثناء العميان ، الذين يستطيعون ان يصدقوا بأن طواغيت المال يهتمون حقا بخير الشعب وليس بارباحهم القصوى المحرزة باهلاك شعوب بكاملها ؟

لذلك فمن الخطأ المبالغة في تقدير دور الصهيونية العصرية والمنظمة الصهيونية العالمية في سياسة الامبريالية العالمية . فالصهيونية ليست اليوم الحركة القومية البورجوازية اليهودية التي كانت في الماضي ، بقدر ما هي جزء لا يتجزأ من الجهاز الامبريالي العالمي (الاميركي قبل كل شيء) للسياسة الاستعمارية ـ الجديدة ، سياسة التخريب والتضليل الايديولوجيين .

ذلك ما يجعل الفضح المنهجي للصهيونية ، وممارستها الرجعية ، الامبريالية ، وأداتيهما انطلاقا من مواقع النضال المعادي للامبريالية ، ومواقع الاممية البروليتارية ، احدى المهمات الرئيسية للحركة الشيوعية العالمية ، ولجميع المناضلين من أجل السلم والديمقراطية .

ويشير برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي الى ان « النزعة القومية هي السلاح السياسي والايديولوجي الرئيسي المستخدم من قبل الرجعية العالمية وبقايا القوى الرجعية الداخلية ضد وحدة البلدان الاشتراكية .. ان الافكار المسبقة القومية ورواسب الخلافات القومية القديمة هي الميدان الذي يمكن أن تكون فيه مقاومة التقدم الاجتماعي الاطول أمدا والاكثر عنادا وضراوة وتحايلا » .

وقد كرس دور على حدة للصهيونية في منظومة الالهاء والتضليل والتخريب الايديولوجية التي اقامتها الامبريالية . وقد أصبحت الصهيونية خلال تطورها ، بشكل ما ، تكثيفا للافكار الرجعية ، افكار العنصرية والعداء للشيوعية . والصهيونية ، باستغلالها بصورة مهينة مأساة ابادة الفاشية الهتلرية للملايين من اليهود ، ترتبط دون حياء بالمنظمات الفاشية النزعة ، مثلا ، مع البيرشيين في الولايات المتحدة ، والصهيونية ، بتظاهرها بالاهتمام بالمسالة اليهودية ، تقوم بمهمتها القائمة في الكفاح ضد التأثير المتزايد للاسرة الاشتراكية ، بنشرها ـ أي الصهيونية ـ خرافات حول وضع اليهود في الاتحاد السوفياتي ، وفي البلدان الاشتراكية الاخرى . وهذه المهمة تمارسها المنظمة الصهيونية العالمية بالاشتراك مع مراكز قائمة في الولايات المتحدة واسرائيل ، وكذلك مع المؤتمر اليهودي العالمي . ولهذه المنظمات فروعها في العديد من البلدان .

وبواسطة المنظمات الصهيونية العالمية والصحافة البورجوازية العالمية ، والراديو ، والتلفزيون، ووكالات الانباء، تنشط البورجوازية الاحتكارية اليهودية لتسعير العداء للسوفيات ، وتسميم الناس السذج ، غير الناضجين كفاية ، بدعاياتها الافترائية . ان مصدر النزعة المعادية للسوفيات يقوم في الحقد الطبقي على أول دولة اشتراكية في العالم ، التي اثبتت تاريخيا : ان المسالة اليهودية يمكن ان تحل حلا جذريا وتنتهي تماما وذلك لا كما يريد الصهاينة ، بل فقط بفضل انتصار الاشتراكية .

تتمة المنشور على ص ١٦ ←